فيزياء تحوّلات الخطاب السّرديّ في رواية "أطراس الكلام" لعبد الخالق الرّكابيّ[١]

نارت "محمد خير" قاخون(١)

تاريخ تسلم البحث: ٢٠١٩/٢/٢٠م تاريخ قبوله للنشر: ٢٠١٩/٤/٢٥م

ملخص

يحاول البحث رصد التّحوّلات في الطّاقة السّرديّة في رواية "أطراس الكلام"، مستجليّاً التدفّق السّرديّ شكلاً من أشكال التّحوّل الفيزيائيّ في المحمولات الخطابيّة الكامنة في المتن السّرديّ سعياً إلى اتزانٍ في محصّلة القوى داخل المتن السّرديّ أو خارجه.

لذلك يستعين البحث بأدوات تحليل الخطاب النقديّ، ومنطلقات التفكير المنظوماتيّ، مترافقاً مع مقترحات الباحث المفهوميّة والإجرائيّة والمنهجيّة لاختبار فرضيّة من مستويين: الأوّل هو أنّ المتن السّرديّ لرواية (أطراس الكلام) جاء محاولة ناجزة وناجحة سرديّاً وخطابيّاً للنّجاة من مأزق مركّب: المأزق الخارجيّ ويظهر في الفواعل السّياقيّة الدّافعة لإنشاء السّرد، والمأزق النّصّي السّردي بإحالة القول الخطابيّ إلى التمثيل السّرديّ نفسه للمحافظة على أدبيّته وتحرّره من محدّدات الشّروط السّياقيّة. والآخر هو أنّ هذا الأنموذج من التحليل ينجح في كشف المضمرات والتّحوّلات الكامنة.

الكلمات الدّالة: فيزياء السّرد، الطّاقة السّرديّة، التحوّلات السّرديّة، تحليل الخطاب.

Abstract

This research attempts to monitor shifts in narrative energy in the novel" Atras Al Kalam", clarifying the narrative flow as a form of physical transformation in the implicit rhetorical carriers inherent in the narrative text, aiming at balancing the sum of the forces, both inside and outside the narrative text.

To that end, the researcher uses the tools of analysis of critical discourse, and the perspective systematic thinking and its considerations, in conjunction with the researcher's conceptual, procedural and methodological proposals to test a two-tier hypothesis: the first is that the narrative text of the "Atras Alkalam" novel came as a complimentary and successful narrative and rhetorical attempt to escape a complex impasse: in the external contextual drives to create the narrative, and the narrative scriptural dilemma by referring

(١) قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة آل البيت.

the rhetorical utterance to the narrative representation itself to preserve its literariness and free it from the contextual determinants. The other one is that this model of analysis succeeds in detecting the underlying crossover and transitions.
Keywords: Physics of narrative, Narrative energy, Narrative transformations, Discourse analysis.

المقدمة.

تحكي الروايات مقولاتها بطريقة لا يمكن الوفاء بها إلا بالسّرد الروائيّ؛ فالسّرد في الرّواية ليس مجرّد حامل لمتن الحكاية يمكن للحكاية أن تكون هي خارجه، فحين تقول الراوية قولاً في التاريخ، فهي لا تُحيل إليه خارج متنها السّرديّ، بل تُحيل إلى مقولاتها السّرديّة نفسها؛ لأنّ الخطاب السّرديّ نتاج التّمثيل الأدبيّ وإجابة سؤال "كيف قالت الرواية؟ وكيف حكى السّرد؟" أكثر من إجابة سؤال "ماذا قالت الرواية"؟

لذلك يُلتمس خطاب الرواية السّردي من نظم الرواية التمثيليّ، ويُقبض على جماليّات أدبيّة الرواية من هذا التمثيل السّرديّ؛ فالجمال الفنّي جمالٌ في تمثيل شيءٍ ما، لا في جمال ما تمثّله في الطبيعة والتّاريخ والإنسان والمجتمعات. (كانط، ٢٠٠٩).

وتأسيساً على ذلك يقوم هذا البحث على تحليل الخطاب السّرديّ وتحوّلات فيزيائه في رواية (أطراس الكلام) للكاتب العراقيّ (عبد الخالق الركابيّ)، تحليلاً يتوسّل بأدوات (التحليل النقديّ للخطاب) المعروف بـ((critical discourse analysis (CDA)، وشعريّة السّرد الّذي يرى:

١- الأدب نظاماً لغويّاً خاصّاً يستمدّ أدبيّته من عنفه المقصود في خلخلة نظام اللغة الاعتياديّة، ليصبح هذا النّظم اللغويّ الخاص بؤرة تشكيل الخطاب.
٢- النّصّ الأدبيّ تمثيلاً لغويّاً يستمد أنطولوجيا وجوده وتأثيره وفاعليّته من طاقة الوضع الكامنة في نسيجه اللغويّ.
٣- الرّواية تمثّلات سرديّة تستمدّ روائيّتها من المتن السّرديّ الّذي يجعل الوظائف اللغويّة مُناطة بإنجاز الوظائف السّرديّة.
٤- الخطاب السّرديّ مقولاتٍ مضمرةٍ وكامنة في المتن السّرديّ والتمثّلات السّرديّة. (شارودو، ٢٠٠٨).

ومن هنا فإنّ التحليل النقديّ للخطاب يتجاوز الجدل الدائر في التفريق بين النّصّ والخطاب، واضطرار الباحثين إلى مناقشة اختلافات رسم المسافات الإجرائيّة بينهما، إلى إجراء براجماتيّ يبدأ الباحث بوضع تصوّره للنّصّ والخطاب، ثمّ يسير في بحثه على شرط الوفاء بهذه التّصوّرات، ثمّ الاتّساق

المنهجيّ الضّامن عدم حدوث انقلابات مفهوميّة.

وعليه، فالنّصّ من منظور الباحث هو "المتن اللّغويّ" الحامل لطاقة وضع خطابيّة في لحظات السّكون الخطابيّ، أي بكونه نصّاً وحسب.

أمّا الخطاب فهو تلك الطّاقة الوضعيّة الكامنة في حالة الظّهور والحركة التّداوليّة، أي حين يكون جزءاً من سياق المقروئيّة والتّداوليّة.

وهذان المفهومان للنّصّ والخطاب يغني بهما الباحث مقترحات (التحليل النّقدي للخطاب) بمقترحاته المستعارة من أحدث أطوار المنظور الفلسفيّ والنّقديّ المتمثّل في (المقاربة المنظوماتيّة) التي تستعير من (فيزياء الطّاقة) لتفسير الظّاهرة اللغويّة الإنسانيّة العامّة أوّلاً، ثمّ تفسير الظّواهر اللغويّة الخاصّة ثانياً وفق هذه الرؤية التّشكّليّة:

١- اللغة في مقام الطّاقة الصّوتيّة: هي تحوّلات في الطّاقة الفيزيائيّة تنشئ طاقة صوتيّة لغويّة بفضل القوّة الانتظاميّة الخاصّة بلسانٍ ما.

٢- اللغة في مقام الطّاقة الدّلاليّة: نتيجة للقوّة الانتظاميّة الخاصة في اللغة، فإنّ اللغة تكتسب طاقة دلاليّة بسبب القوّة الانتظاميّة الدّلاليّة في لسانٍ ما، والفرق بين هذا المقام والّذي قبله هو أنّ الأوّل يُعطي جميع الممكنات الطّاقة الصّوتيّة الكامنة في أيّ لغة، بغضّ النّظر عن وجود طاقة دلاليّة في هذه الممكنات الصّوتيّة، بينما تشير الطّاقة الدّلاليّة إلى تلك الممكنات الصّوتيّة التي تحوّلت طاقتها من "الإمكان الدّلاليّ" إلى "الإنجاز الدّلاليّ".

٣- اللغة في مقام الطّاقة السّياقيّة العامّة: وهي تحوّلات الطّاقة الناتجة عن تحوّل اللغة إلى حالة كلاميّة في سياقات تداوليّة، أي إنّها تمرّ في تحوّلات طاقة نتيجة القوّة الانتظاميّة السّياقيّة التّداوليّة. وهذه التّحوّلات في الطّاقة تتقاطع مع منظور (ياكبسون، Якобсон) في مقاصد الخطاب المنبثقة عن مخطّطه التّواصليّ.

٤- اللغة في مقام الطّاقة السّياقيّة الخاصّة: وهي تحوّلات الطّاقة الناتجة عن انتظاميّة أدبيّة خاصّة، تجعل البزوغ الكلاميّ بزوغاً خاصّاً يكثّف الطّاقة في المتن الكلاميّ واللغويّ نفسه، أي تتحوّل الطاقة إلى "طاقة الأدبيّة" التي تنقل مسار التّحوّلات من مقاصد الإنجاز إلى مقاصد الرؤية والوعي؛ فالأدبيّة لا يُرام منها تحوّل في الطّاقة في مقام الواقع والوجود بقدر ما يُراد منها تحوّلات في الطّاقة في مقامات رؤية الواقع والوجود والوعي بهما.

٥- اللغة في مقام الطّاقة السّرديّة الخاصّة: وهي منبثقة عن تحوّلات الطّاقة من الأدبيّة إلى نوع خاصٌّ من الأدبيّة يتمثّل في القوّة الانتظاميّة الناشئة من السّرد وعنه.

والباحث في استمداده لمفاهيم الفيزياء والمادّة والطّاقة لا ينطلق من المفهوم الضيّق لها؛ فالفيزياء والمادّة والطّاقة مفاهيم تتعلّق بكلّ ما هو موجود، أي له تحقّق وأثر في مقام أنطولوجيا الوجود، فاللغة بزوغ من الحالة الجسيميّة الصّوتيّة الملفوظيّة والجسيميّة البصريّة المكتوبة يؤدي إلى نشوء طاقة وعيّية ومعنويّة لها حضور في وعي الإنسان بالمعاني والدّلالات، وكذلك الأدب والرواية يشكّلان بزوغات خاصّة لطاقة دلاليّة تشكّل وعياً خاصّاً بهذين التّشكّلين، والفروق بين كلّ مستوى من هذه المستويات في شكل الطّاقة وتحوّلاتها ينتج من تطوّر في الانتظام، وتالياً تصوّر تراتيبيّ مقترح لهذه التّحوّلات وأثر الانتظامات الخاصّة:

- الطاقة الحركيّة الناتجة عن اندفاعات الهواء عند النّطق + انتظام خاص١ = طاقة صوتيّة.
- الطّاقة الصوتيّة + انتظام خاص بلسانٍ (نظام لغويّ")٢= طاقة كلاميّة.
- الطّاقة الكلاميّة + انتظام خاص بالإحالة الدّلاليّة٣= طاقة معنويّة، وأثرها حضور الوعي.
- الطّاقة المعنويّة + انتظام خاص بالأدبيّة٤ = طاقة أدبيّة، وأثرها حضور خاص في الوعي.
- الطّاقة الأدبيّة + انتظام خاصّ بالسّرديّة٥ = طاقة سرديّة، وأثرها حضور نوعيّ في الوعي.
- الطّاقة الخاصّة بالسّرديّة + انتظام خاصّ بالسّارد٦= طاقة روائيّة، وأثرها حضور ذاتيّ مشترك بين وعي السّارد ووعي القارئ وفواعل السّياق التداوليّ في لحظة التقاء الوعيين.

ويجدر بالبحث هنا قبل أن يمضي في بحثه أن يشير إلى أنّ هذه المقترحات لا تقوم على التّوسّل بمقترحات نقديّة ناجزة في الدّرس النقديّ في حدود علم الباحث، بل هي مقترحات خاصّة به في طور الإنجاز يحاول اختبارها ضمن شرطي المقبوليّة والاتّساقيّة، لذلك لا يُطالب بالإحالة المراجعيّة لجلّ مقترحاته ومفاهيمه وإجراءاته؛ فهي وإن استمدّت أصولها من البرادايمات المعرفيّة والمنهجيّة المذكورة إلا أنّها تشكّل حالة خاصّة يشفع للباحث خوضها واقتراحها جرأة معرفيّة ونقديّة تحرص أن لا تكون تهوّراً منهجيّاً. ورغم ذلك يقرّ الباحث أنّ التجديد والإبداع في القراءة النقديّة الأدبيّة والفكريّة ليس خلقاً من عدم، بل هو إنشاء شيء أو قول جديد من التعامل تعاملاً خاصاً جديداً مع شيء أو أشياء أو أقوال قديمة موجودة.

ولنظم ما سبق ميثودولوجيّاً يستهدي الباحث في دراسته الضّوابط المنهجيّة الآتية:

مشكلة الدراسة: حدودا وآفاقا.

دراسة التحوّلات في فيزياء الخطاب السّرديّ متمثّلاً في رواية (أطراس الكلام) للروائيّ (عبد الخالـق الرّكابيّ)، فتنتظم الحدود الموضوعيّة في متن الرواية السّرديّ، وتنفتح الآفاق على فيزيـاء

سياقات التلقّي والبزوغ.

منهجيّة الدّراسة: نظاما ومفاهيم وإجراءات.

تتوسّل الدّراسة بممكنات التحليل النّقديّ للخطاب (CDA) أداة تحليليّة تكشف عن العناصر المشكّلة للخطاب في وحداتها الصّغرى، وتستكمل بممكنات التفكير المنظوماتيّ systems thinking لاستثمار الممكنات التحليليّة للتّحليل النّقديّ للخطاب والخروج من مأزق الاختزاليّة الآليّة والمنطق الذّريّ atomistic، والانتقال إلى منظور كليّانيّ يتميّز بالكفاءة والقدرة التفسيريّة والمقبوليّة القرائيّة، معتمدة على تجسير مقترح من الباحث يلحظ تحوّلات فيزياء السّرد في حركة بندوليّة تراوح بين التحليل والتركيب وأثر فروق الطّاقة الانتظاميّة في حدوث التحوّلات السرديّة والخطابيّة.

مقاصد الدّراسة:

الكشف عن سيرة التّحوّلات والانقلابات السّرديّة في رواية (أطراس الكلام) لكشف تحوّلات الطّاقة الخطابيّة في تجليّاتها الظّاهرة، ومضمراتها الباطنة والكامنة، وبيان الأطوار السّرديّة وتحوّلاتها في محاولة الخروج من مأزق سياقيّ خاصّ، ومدى النّجاح أو الإخفاق في هذه المحاولة.

فرضيّات الدّراسة:

تفترض الدّراسة أنّ المتن السّرديّ لرواية (أطراس الكلام) جاء محاولة ناجزة وناجحة سرديّاً وخطابيّاً للنّجاة من مأزق مركّب: المأزق الخارجيّ ويظهر في الفواعل السّياقيّة الدّافعة لإنشاء السّرد، والمأزق النّصّي السّردي بإحالة القول الخطابيّ إلى التمثيل السّرديّ نفسه للمحافظة على أدبيّته وتحرّره من محدّدات الشّروط السّياقيّة.

أمّا المأزق الخارجيّ فيتجلّى حسب ما أورد الركابي نفسه في لقاء صحفيّ، كانت رواية "أطراس الكلام" استجابة روائية لطلب الرئيس العراقيّ الرّاحل "صدام حسين"، ولهذا المأزق الخارجيّ وجوه:

- تحوّل الخطاب السّرديّ إلى استجابة دعائيّة لحكم الرئيس صدام ووجوده.
- تحوّل الخطاب السّرديّ إلى استجابة تمييعيّة لواقع الحصار على العراق وآلامه نتيجة محاولة الهروب من الوجه الأوّل.
- تورّط الخطاب السّرديّ بمتلازمة "الرّئيس هو الوطن"، و"الوطن هو الرّئيس".

أمّا المأزق النّصّيّ السّرديّ فيتمثّل بالإكراهات الخارجيّة على المتن السّرديّ أدبيّة ووظائف،

فيلجأ السّارد إلى التّضحيّة بأدبيّة السّرد لصالح صيانة خطاب السّرد الواقع تحت تأثير ما خارج النّصّ، وهذا ما يفترض البحث نجاة الرّواية منه بالقدر الكافي.

هيكليّة الدّراسة:

للوصول إلى الغايات والمقاصد البحثيّة تنهج الدراسة هذا الإطار الهيكليّ:

١- عتبة العنوان: طاقة الوضع السّرديّة والخطابيّة الكامنة.

٢- التّدافع السّرديّ: تحوّلات الطّاقة السّرديّة وضبط المخزون الطّاقويّ للخطاب.

٣- الاستمداد من منابع الطّاقة المتجدّدة.

٤- الطّاقة السّيميائيّة وتفريغ العبء الرّمزيّ.

٥- تقلبّات الوضع الاستبداديّ السّرديّ والحركة الدّيمقراطيّة السّرديّة.

٦- الهروب من أطواق السّرد: الاتّزان خارج السّرد وداخل النّصّ.

طاقة الوضع السّرديّة والخطابيّة الكامنة:

يشكّل العنوان عتبة نصيّة لا يُمكن العبور إلى المتن النّصيّ إلا بالمرور بها وعبرها، وتختزن فيها طاقة وضع سرديّة وخطابيّة واعدة بتحوّلات تظهر في سيرورة المتن السّرديّ وصيرورته، وهذه الطّاقة يُمكن أن تحافظ على مبدأ حفظ الطّاقة القائل: "الطّاقة لا تفنى ولا تُستحدث، ولكن تتغيّر من حالة إلى حالة".

وهذا الحفظ للطّاقة لا يلزم أن يتحقّق في الفضاء السّرديّ المحصور بالمتن وخطابه، فكثيرة هي النّصوص الأدبيّة والروائيّة التي لا تتميّز بكفاءة كاملة في حفظ الطّاقة الكامنة في عتبة العنوان، فتتسم تحوّلاتها المتنيّة بهدر للطاقة، حتى يبدو المتن أقرب لإخلاف الوعد العنوانيّ.

في مقابل هذا الهدر نجد متوناً سرديّاً تحافظ على الطّاقة الكامنة في عنوانها، بل يكتسب متنها المزيد من الطّاقة بتفاعله الحيويّ مع مخزون الطّاقة السياقيّة.

يرى الباحث أنّ عتبة العنوان في رواية عبد الخالق الرّكابيّ تميّزت بطاقة وضع سرديّة وخطابيّة وتأويليّة كثيفة، رافقتها تحوّلات غنيّة في السيرورة السّرديّة، واستمرّت في استمداد طاقات خطابيّة نصيّة وسياقيّة حتى اللحظات ما بعد السّرديّة كما سنرى.

تُحيل الرواية متنها "المكتوب" إلى "لحظة التعليق" متوسّلة بعتبة "العنوان"؛ فالأطراس جمع طِرس، وهي الصّحيفة، وهو الكتاب الذي مُحيّ ثمّ كتب (ابن منظور، ٢٠٠٤، ص١٠٤)، فهي كتابة

على الكتابة، تمحو الثانية الأولى لتكون الأولى التي تنتظر ثانية تمحوها. وفعل "طرَس" يعني الكتابة والمحو معاً، ويعني الصحيفة محلّ الكتابة والمحوّ كذلك. لذلك يمكن أن نلحظ مستويات من الطّاقة الكامنة في (طرس – أطراس):

- طاقة الكتابة المتجدّدة.
- طاقة المحوّ المستأنفة.
- الطّاقة الجدليّة الناتجة عن تبادل فعلي الكتابة والمحوّ.
- الطاقة الكامنة في الصّحيفة أو الكتاب الحامل لتبدّلات طاقة المحو والإثبات.
- تظافر الطّاقة من تحوّل الطرس المفرد إلى أطراس مجموعة.

وإذا أضفنا المضاف إليه وهو (الكلام) اكتسب العنوان طاقات كلاميّة كامنة ومتحوّلة، فأصبحنا أمام عتبة كثيفة تبشّر بالتحوّلات والتّردّدات، والانتقالات من مقامات الحضور بالكتابة والغياب/التغييب بالمحوّ، اليقين كتابة والشّكّ محواً، دون أن تفنى أيٌّ من مظاهر الطّاقة هذه، بل تتغيّر ظهوراً وكموناً.

وهذه الطرسيّة الكلاميّةلا تحيل لا إلى الفعل "الكتابي" الكتابيّ الكلاميّ وحسب، بل إلى "الفعل الإنساني" كذلك، الذي يمحو قدراً ليكتب قدراً. فيمكن لهذه العتبة العنوانيّة أن تُقرأ في سياق "النصّ القدري الديني": ((رُفعت الأقلام، وجفّت الصحف))[٢] الّذي يدلّ بظاهر لفظه على ضدّ معنى الطّرس والتطريس؛ فالأقدار الإنسانيّة تبدو من هذا الحديث معطيات نهائيّة مُنجزة، مكتوبة في كتب علم الله لا تتبدّل ولا تتغيّر؛ فلا كتابة تجدّد، ولا محوّ يحدث.

وبعيداً عن الجدل الكلاميّ واللاهوتيّ في مسألة القدر، فإنّ عنوان الرّواية "أطراس الكلام" يوحي بوعي السّارد الظّاهر في سرده بأحد أعمق دلالات الفعل السّرديّ في الخبرة الإنسانيّة، أي النّظر إلى السّرد قدراً موازياً، فالحياة والتّاريخ الإنسانيّ تجليّات للقدر إمّا بالفعل الإلهيّ الخالص، أو بتفاعل الإرادة الإنسانيّة مع الأقدار، أمّا السّرد فتجليّات لإرادة الكتابة وأقدارها، التي تجعل السّارد فاعلاً قدريّاً، ويتجلّى فعله في مقام الكتاب والكتابة، لذلك تتحوّل الأقدار من معطىً نهائيّ ناجز إلا معطيات لا نهائيّة في طور الإنجاز، فهي ليست معطىً نهائياً سابقاً للوجود الإنسانيّ بل هي "فعل دائم" برسم التحقّق نتيجة "الصراع" و"الجدل" بين الأقدار.

وهذه الطّاقة القدريّة الكامنة في السّرد وخطابه سنرى تحوّلاتها واستمداداتها حاضرة في الرحلة السّرديّة كلّها.

التدافع السرديّ: تحوّلات الطاقة السرديّة وضبط المخزون الطاقويّ للخطاب:

إذا كانت "الأطراس" تُحيل بطاقة وضعها الخطابيّة إلى تحوّلات الفعل الكلاميّ وفيزياء خطابات السّرد، فإنّها تُحيل إلى تحوّلات في الحدَثيّة السّرديّة، فهي تشير إلى حدث هامّ قديم ترك آثاراً في مستقبل (السارد= الراوي)، يوم كان طالباً مولعاً بقراءة الروايات، والكتابة على غرارها، والنّقل منها أحياناً إلى الحدّ الذي جعل مُدرّسهُ ينبّهه إلى ذلك مستخرجاً منها الهِنات والتّناصات الخفيّة التي جاءت من قراءاته الخارجيّة، لقد كان ذلك المُدرّس هو النّاقد الأول الذي سيغضبه دائماً، لكنّه سيضعهُ على الخطّ الصحيح حين جاءه بالقصّة التي كتبها بعد أن كان قد سمعها من أبيه عن شجاعة جدّه الراحل ومدى تمسّكه بأرضه وغراسه. بيد أنّه لم يختر يومذاك لقصته عنواناً واكتفى بأن افتتحها بالآية ﴿**اللَّـهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[النور:٣٥]، ولشدة إعجاب المُدرّس بالقصة نشرها في النشرة الجداريّة للمدرسة بعد أن اختار لها عنواناً غريباً هو (طرس الكلام)، ولم يكن اختيار مفردة (الطرس) بدوافع ذوقيّة سطحيّة بقدر ما كان اختياراً نقديّاً واعياً لظلالها الدلاليةّ، "فالطرس –كما قال المدرّس– هو الكتاب الممحو الذي تعاد عليه الكتابة، وذلك هو شأن كل كتابة إبداعية حقيقية، ما من نص قُيّض له الخلود إلا نتيجة تراكم نصوص سابقة له" (الركابي، ٢٠٠١). وستكون هذه القصة اللبنة الأولى لرواية أطراس الكلام التي سيفتتحها هذه المرة عبد الخالق الركابي بالآية (٣٥) من سورة النور، في تماهٍ لافت ما بين شخصيتي الراوي والمؤلف.

وهكذا فإنّ طاقة الوضع الكامنة في العنوان تمرّ في تحوّلات سرديّة وتناصيّة لا تحفظ لها طاقتها وحسب، بل تُكسبها طاقة متجدّدة بالاتّصال بأنظمة نصيّة وخارج نصيّة غنيّة في الطّاقة، وتالياً توضيح ذلك:

- الطّاقة النّورانيّة المستمدّة من آية سورة النّور، التي جاءت مقدمّة لطورين من السّرد: السّرد الجزئيّ في حكاية القصّة داخل القصّة؛ قصّته المكتوبة قديماً عن جدّه، وقصّته المستأنفة في السّرد الكليّ.
- تحوّلات الطّاقة نتيجة تحوّلات "الطرس" من عنوانٍ للقصّة الداخليّة باقتراح الأستاذ، إلى عنوان بعد جمعها لسرديّة السّارد في روايته، ممّا يجعل "الطرسيّة" فعلاً عابراً للنّص أوّلاً، ثمّ نصيّاً ثانياً، ويجعل التّحوّل من المفرد إلى الجمع فعلاً سرديّاً لا مجرّد فعل لغويّ.

- طاقة التوازي بين العنوان وآية سورة النّور، ممّا يجعل الآية عنواناً موازياً لا تنفك ممكنات العنوان الطّاقويّة عن ممكنات هذه الآية اللانهائيّة، وهكذا تنفتح السيرورة السّرديّة وكذلك صيرورات الخطاب على مصدر لا نهائيّ للطّاقة يحرّر المتن السّرديّ من ضوابط حفظ الطّاقة، فالآية تضرب مثلاً بنائيّاً تصاعديّاً لنور الله اللانهائيّ، فيصبح الفعل السّرديّ اقتباساً من ذلك النّور في تصاعديّته وإن لم يستطع ولن يستطيع بلوغ مقامات النّورانيّة، وهذا بدوره يفتح أبواب التأويل على ممكنات باطنيّة كامنة في المتن السّرديّ، لا يُمكن الانفتاح عليها إلا بتعاون كبير بين منشئ النّصّ والخطاب ومتلقّيه من جهة أخرى.

انطلاقاً من ممكنات "التطريس": المحو والإثبات، الكتابة ثمّ المحو ثمّ الكتابة، وهكذا ينتقل هذا التّطريس من فعلٍ حقيقيّ إلى فعلٍ سرديّ، سيفارق التّطريس الحقيقيّ بالانتقال إلى تدافع سرديّ بين سردين لا يمحو الثّاني الأوّل في الفعل الكتابيّ بل يثبت بعده ومعه، ولكنّه يُشكّل حالة من المحوّ السّرديّ، فالمكتوب الظّاهر من المتن السّردي في مستوييه لا يثبت إلا بقراءة جدليّة المحو والإثبات المضمرة في ثنايا المتن السّرديّ، أي في الخطاب السّرديّ، ممّا يجعل تحوّلات الطّاقة السّرديّة والخطابيّة غير مقتصرة على تحوّلات إنجازيّة، بل تحوّلات في مستوى الرؤية، وهذا ما يجعل فيزياء هذه الرواية فيزياء وعي رؤيويّ.

نحن أمام سردين يتدافعان يحاول الأوّل: سرد الرّحلة أن يتجلّى في طاقة سرديّة حركيّة تختصر الزّمان الفيزيائيّ في زمن مكثّف سرديّاً، فيبدو الإيقاع السّرديّ سريعاً، وهذه السّرعة لم تكن خياراً ذاتيّاً من السّارد غفلاً عن التعالق مع المتن السّرديّ ووظائفه، بل جاء استجابة للحدث الموتيفيّ في السّرد المتمثّل بالاتّصال الهاتفيّ المقطوع، فكان قطع الاتّصال فيزيائيّاً دافعاً سرديّاً لحركة سائلة تختزن الزّمان.

بينما جاء السّرد التّذكّريّ انتقائيّاً رخواً وحرّاً في الزّمانيّة، فبدت تجليّاته أقرب لطاقة وضع كامنة، وكأنّها تريد إيقاف التدافع السّرديّ الحركيّ.

لأجل ذلك قامت الفنيّة السرديّة في الرواية على اختيار نمطين سرديّين يعملان معاً على تشكيل ثنائية ضديّة زمانيّة؛ سرد يقوم على "الكثافة الزمنيّة= سرد الرحلة"، وسرد ينهض إلى "الرخاوة والامتداد الزمانيين" لتعبّر عن جدليّة "ما كان" و"ما يكون"؛ ففي السرد المتجهي المكثّف للزمن يُختزل الزمان بساعات هي مدّة الرحلة من بغداد إلى مدينةٍ لا تحدّد باسمها بل بصفتها"مدينة على الحدود بين العراق وإيران".

رحلة كثيفة الزمان يحملها فضاء مكانيّ ضيّق = حافلة، لكنه متحرّك ينطلق من نقطة إلى أخرى يجمع عدداً من الشخصيات التي انطلقت في رحلة "عودة" إلى مدينتها بعد أن جاءتها نداءات مبتورة من أهلهم بوقوع حدث جلل، يُكشف بعدها أنّ المدينة تعرّضت لقصف أمريكي أدى لتدميرٍ فيها وقطع الاتصالات.

هذه الرحلة التي لا تتجاوز سويعات تختزل "زمن الحصار" شخوصاً وأحداثاً، ففي الحافلة يجتمع "المثقف الهارب" من الأطراف إلى المركز= العاصمة الذي يمثّله السارد نفسه، مع "المزارع المنكوب تحت وطأة استغلال "تجار الحصار والحرب"، مع "التاجر المستغِل" الذي يركض إلى المدن المنكوبة ليستغلّ نكبتها فيعقد صفقات رابحة من دماء أهله وشعبه، مع "أم الشهيد" التي لا تعترف بموت ابنها رغم مرور سبعة عشر عاماً على غيابه، مع "الخطيبين الأزليين" اللذين تعلّقت حياتهما حتى يرجع ذلك الشهيد حيّاً، رحلة يقودها سائقٌ لا يهمه من الرحلة إلا أن يصل سالماً ويرجع سالماً غانماً.

وهكذا يكتسب المتن السّرديّ طاقة من مصادر متعدّدة تجعل كميّتها تصاعديّة وتحوّليّة، ويتحوّل خطاب المتن السّرديّ إلى شبكة من الأنظمة المتداخلة والمتدافعة يقوم على تشظية بؤر الخطاب، ليكون كلّ راكب بؤرة خطابيّة يشكّل سردها سلسلة من الوحدات الخطابيّة تنتظم لرسم ملامح مأساة العراق وإنسانه، وتوحي للقارئ المتسرّع بأنّ السّرد يتورّط في إدانة الضّحيّة، ولكنّ هذه القراءة تتوارى بأثر من القطع السّرديّ، واستدعاء الماضي، لتصبح هذه النّماذج شهادات مقطوعة ومنقطعة لا بدّ من استكمال فراغات طاقتها خارج المتن السّرديّ أو ضمن الانتظام العامّ للحامل السّرديّ كلّه، فتصبح إدانة الضّحيّة والمظلوم مجرّد فروع ونتائج لفعل الجلاّدين الظّلمة المتمثّلين بفواعل الحصار، الّذي لا يُمكن عزله عن الأسباب المهيّئة له، والأسباب الصّانعة له، تلك الأسباب التي تتجلّى بمراكز القوّة والسّلطة داخل العراق وخارجه.

استدعاء الماضي: الماضي بطل الحاضر والمهيمن عليه.

الزمن هو بطل (أطراس الكلام). وزمن الرواية هنا يتحدّد بإطارين متداخلين، الإطار الأول: يمثّله زمن الحدث الحاضر، وهذا الإطار يتشكّل منذ الصفحات الأولى لينتهي في آخر صفحة. وعلى كثافة ما يدور ضمن هذا الإطار من أحداث إلا أنّه لا يمتد لأكثر من (٢٤) ساعة، أي منذ أن تلقّى الراوي المكالمة الهاتفية المبهمة فوداعه لأسماء فالسفر بسيارة نقل ثمّ وصوله إلى مستشفى المدينة ولقاؤه بـ"رؤى" ثمّ وصوله لبيت عائلته.

أما الإطار الزمني الثاني: فيتجسّد بتداعيات الراوي ويمتدّ لأكثر من جيل رابطاً ما بين حياة الجد، ثمّ الأب، ثمّ الابن (الراوي)، متداخلاً مع سرد الأحداث الماضية التي يستغرق بها الأشخاص الآخرون

أي رفاق السَفر.

ولشدّة أثر سرديات التداعي في السرد الخطيّ، كان الماضي حاضراً في كلّ فصول الرواية، فهو وحدتها البنائية الأساسية الذي يحضر بطريقتين؛ الأولى تكوينية: تتمثل في كون الماضي لا يزال فاعلاً؛ فهو الأساس الطبيعي للحاضر، وتأثيراته لا تزال ظاهرة في مسيرته، وهو المحرّك للكثير من أحداثه، فماضي الأب المتصلّب لا يزال يُرعبُ الراوي حتى بعد انفصاله عنه، وإعجابه ببطولة جده يظلّ المحرّك لدوافعه في الكتابة، وهكذا تعود وحدات الماضي لتتشكّل في بنية الحاضر دون أن تموت أو تتلاشى.

والطريقة الثانية إجرائية: فالأدوات السرديّة التي اعتمدها الكاتب في تحقيق رؤيته الفلسفية لعمله الروائي كانت وراء تلاعبه بمسار الزمن، وتحريفه عن استقامته واعتراض توجّهه للأمام مستعيناً بلعبة الذاكرة التي تفكّك خطاب الزمن لتصوغ للنفس زمنها ومنطقها متوهّمة أنّها تخرج عن قوانين الفيزياء، وهي في الحقيقة تخرج من فضاء فيزيائيّ إلى فضاء آخر، فليس هناك إلا تحوّلات.

الاستمداد من منابع الطاقة المتجددة:

يمكن وصف الرواية بأنّها نداء العودة إلى الأصول الأولى (الحب الأول، والمدينة الأولى، والبيت الأول، والأم، والقصّة الناضجة الأولى) تعبّر عنها أبيات أبي تمام المستدعاة في المتن السرديّ:

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

(الرّكابيّ، ٢٠٠١، ص١٨)

ودون تخطيط ظاهر يباشر الراوي مواصلة كلّ تلك العودات بعد أن تلقّى مكالمة هاتفية مبهمة من أحد أقاربه يستدرجه للعودة إلى مدينته الجنوبية الحدوديّة التي كان قد غادرها منذ سنوات طويلة ليسكن بغداد، وقد جاءت المكالمة بعد شيوع نبأ الهجوم الجوي الأمريكي على المدينة وتسببه بكارثة إنسانية، وهذه الكارثة على ما يبدو ليست سوى نداء سرّي موجه للراوي من القدر للعودة الى أصوله المقطوعة، وتتردّد أصداء ذلك النداء الغيبي في التركيز على مسرحية سوفوكليس (أوديب ملكاً) في محاولة لافتراض علاقة ما بين مصائر الأبطال في النصّين (أقدارنا تقرّرت سلفاً مثلما نطق العرّاف باللعنة على – أوديب – قبل أن يولد)، وبذلك كان الراوي يلخّص رؤى (ما قيل) عن المسرحية منذ أرسطو حتى فرويد، ولكن (ما قيل) هو غير (ما حدث)، ففي حين تتجلّى في صورة

"أوديب سوفوكليس" أوديب ما قيل أو أوديب المستسلم لقدرية قاهرة، فإنّ أوديب عبد الخالق الركابي يبدو أكثر ارتباطاً بإرادته الحرّة، وأقرب لصورة الإنسان الحرّ كاتب قدره؛ فما هو محتوم هو "الفعل الإنسانيّ" الدائم الذي هو في طور التحقّق دائماً لا في طور الإنجاز المسبق. ويتجلّى ذلك التناقض ما بين ما قيل و ما حدث بما تمخض –بعد سنوات من الحرمان والمعاناة – عن تحدّي الراوي ورؤى لظروفهما الاجتماعية القاسية وتفوّقهما في حياتهما العملية.

منذ اللحظة التي ردّ فيها الراوي على المكالمة الهاتفية المبهمة يكون الكاتب قد رسم خط الانطلاق لرواية تكاد تغلب عليها التداعيات التي تمر بذاكرة الراوي وهو في سيارة نقل متوجهة جنوباً تقلّ –إضافة إليه– عدداً من الركاب، ولكل واحد منهم قصة، وفي جو السفر المثير للشجون يسرد كل مسافر جوانب من قصته تاركاً للآخرين التعليق عليها أو التسلّل عبر خيوطها إلى قصصهم هم، ليعكس (الراوي) من خلال تلك القصص والتعليقات طبيعة الشخصيات ويحدّد مواقعها ضمن خارطة القصّ، وليتخذ منها مسوغاً لتداعياته. لكن إعفاء الراوي من مهمات الراوي العليم، واقتصار دوره على رصد ما يرى وما يسمع جعله محور الرواية، وأداة تشكّلها الأساسية، فكلّ أحداثها تمرّ من خلاله، وحتى ما يسرده الآخرون يعاد ليروى على لسانه، فهو المصفاة التي تتخلل عبرها الأصوات والأحداث الأخرى.

يقدّم الكاتب بطله للقارئ متوسلاً بقصة حب ملتبسة وغير متكافئة– هي الثانية له في حياته العاطفية – مع (أسماء) المنتمية إلى أرستقراطية المدينة التي تسكن مع عائلتها في أرقى مناطق العاصمة (شارع الأميرات في منطقة المنصور) وهو الجنوبي ذو الأصول الفلاحية العريقة أباً عن جد. وقصة الحب هذه لم تفلح في تعويضه عما افتقد من دفء حبّه الأول مع (رؤى) في مدينته الجنوبية الأولى، ولم تستطع أن تُنسيه إياها، بل إن الفوارق الطبقية والثقافية بينه وبين (أسماء) كانت حجر العثرة أمامهما لوضع نهاية سعيدة لهذا الحب، فبقي معلّقاً في منطقة انعدام الجاذبية وعيناه ترنوان باتجاه الماضي.

تشكّل هذه السّيرة التّحوليّة في فيزياء الزّمن وطاقته واحدة من أهمّ خصائص السّرد بما هو سرد؛ فالسّرد فعلٌ تزمينيّ، يُعيد كتابة الزّمن الفيزيائيّ والتّاريخي على شرط السّرد حدوداً وممكنات، فالسّرد يفارق الزّمن الفيزيائيّ بعدم قدرته على التّزامنيّة الحدثيّة؛ لأنّ الحكي والكتابة وهما وسيلتا السّرد فعلٌ تعاقبيّ في بنيته، ولا يستطيع تحقيق التّزامن إلا بطريقتين:

١– الإيهام بالتّزامن بتقليله الفروق التّعاقبيّة في فعلي الكتابة والسّرد لدرجة لا يلتقطها فعل القراءة، فيهملها، وهذا الإيهام قابلٌ للزوال بمجرّد توقيف القراءة وتثبيت اللحظة القرائيّة التي

تؤول إلى حدث واحد لحظتها، أي تعيد المسافة التعاقبيّة المهملة إلى الإعمال.

٢- التّزامن في ذهن القارئ خارج المتن السّرديّ بالقطع السّرديّ، واستعادة الأزمنة على سبيل التّوازي، وهذا التوازي لا يحصل تزامنيّاً بل تعاقبيّاً، ولكنّه حين يتحقّق يستعير قدرة القارئ التخيّليّة التزمينيّة، فيُستعاد التّزامن في مقام الذّهنيّة القرائيّة.

ولأنّ السّرد هو مقترح الوعي الإنسانيّ وفعله للزمن وفيه، كما يرى "بول ريكور"، فإنّها تنفتح سرداً على الطّرسيّة القدريّة، وهذا ما يجعل للسّرد ممكنات تتعالى على ممكنات الزمن الفيزيائيّ، وأهمّ هذه الممكنات قدرة السّرد على اختيار وحدات الزّمن سواء الماضية أم الحاضرة، فيعود إلى ما يريد، ويتجاهل ما يريد، فيكون المتن السّرديّ خطاطة زمنيّة منتقاة، إضافة إلى قدرة السّرد على العودة في الزّمن وهي لا تزال واحدة من مستحيلات الزّمن الفيزيائيّ، فيصبح الحاضر السّرديّ قابلاً للتغيّر والتحوّل والانقلاب، وهذه ممكنات لا فيزيائيّة.

وهذه الممكنات السّرديّة نتاج تفاعل قوىً متعدّدة في الفعل السّرديّ مثل: قوّة الحكيّ، وقوّة التخيّل، وقوّة التذكّر، لذلك لا تكون الرواية سرداً للتاريخ والواقع كما حدثا، بل كما كان يمكن أن يحدثا، فالسّرد اجتراح واقتراح لسيرورة حدثيّة وزمانيّة تتجاوز الواقع التّاريخيّ والفيزيائيّ إلى آفاق الممكنات المهملة في الوقائع التاريخيّة، أو الرّغبات الكامنة في نفس السّارد لا في التاريخ نفسه، فالسّرد ينشئ أنطولوجيا وجوده لتفارق أنطولوجيا الواقع والتّاريخ أوّلاً، ولكن لا تلبث أن تزاحمه وتحلّ محلّه أحياناً كثيرة (ريكور، ٢٠٠٦).

هذه القدرة الحلوليّة للسّرد محلّ الواقع والتاريخ ترجع فيما ترجع لكثافة السّرد، وهي كثافة تحوّليّة، فمرّة تكثّف الزمن المسرود، أي ترتفع الكموميّة الحجميّة للزمن المسرود مقابل انخفاض الكموميّة الزمنيّة لزمن السّرد نفسه، ومرّة تكثّف زمن السّرد، أي ترتفع الكموميّة الحجميّة لزمن السّرد مقابل انخفاض الكموميّة الزّمنيّة للزمن المسرود، وفي الحالتين لا تخرج فيزياء السّرد عن الكثافة والتّكثيف؛ لذلك تستطيع الحلول محلّ الزمن الفيزيائيّ واقعاً وتاريخاً في أذهان المتلقّين، لتصير هي الواقع والتّاريخ.

ومن هنا كان سرّ نجاح السّرد وإغراؤه الشّديد في خصائص فيزيائه التي لا تتوفّر في فيزياء الواقع والتّاريخ، وفي الجدول الآتي توضيحٌ للفرق بين فيزياء السّرد وفيزياء الزمن الواقعيّ والتاريخيّ:

	فيزياء الزّمن الواقعيّ والتاريخيّ	فيزياء السّرد
١	طاقة محفوظة: تقبل التّغيّر، ولا تقبل الحدوث والفناء	طاقة غير محفوظة: تقبل الحدوث والفناء والتّغيّر
٢	حركة متّجهة بالضّرورة: لا تقبل التوقّف والاستعادة	حركة حرّة متّجهة سرديّة، ولكنّها قابلة للتوقّف والاستعادة
٣	حركة متّصلة: لا انقطاعات في الزّمن الفيزيائيّ	حركة قابلة للانقطاع السّرديّ، والقفز الزّمنيّ.
٤	منفصلة عن وعي المُلاحظ "الوعي الإنسانيّ": لها وجود مستقلّ عن وعي الملاحظ للزّمن	قائمة في وعي القارئ "الوعي الإنسانيّ": لا وجود لها خارج وعي الاتّصال اللسانيّ.

ولأجل هذه الممكنات في فيزياء السّرد كان السّرد أحدّ أهمّ مطالب الوعي الإنسانيّ لتحقيق حلمه المستحيل – لغاية هذه اللحظة– بالقبض على الزّمن الفيزيائيّ، فيشعر بحريّة يعسر تحقيقها في الواقع.

إنّ نظام السّرد شموليّ، يقوم على شموليّة تمثيليّة، تحفظ الطّاقة في نظام السّرد، فهي تجعل الواقع والتّاريخ خارج السّرد جزءاً من اللاممثَّل في انتظامها السّرديّ، ولكنّها لا تزعم ولا تستطيع الزّعم بأنّ عدم تمثيل جزء من الواقع في متنها السّرديّ يعني عدم وجود هذا الواقع، والانتباه لهذا الفرق مهمّ حتى لا نقع في أوهام المقاربات الما بعد حداثيّة التي تجعل الواقع والتّاريخ خارج السّرد غير موجود، فيصبح التّاريخ والواقع مجرّد وقائع سرديّة لا وجود لها خارج السّرد (إيجلتون، ٢٠٠٠).

ولأجل ذلك أيضاً كان الزمن السّرديّ قابلاً لحركة غير فيزيائيّة، فيقبل الدورانيّة والحلزونيّة كما في الشّكل الآتي:

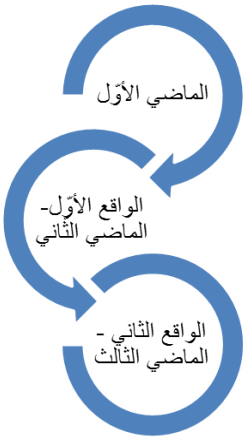

الطاقة السّيميائيّة وتضريغ العبء الرّمزيّ:

في إغراء سيميائي يمكن أن نقرأ دلالات الأسماء بين (رؤى) جمع رؤية و (أسماء) جمع اسم؛ فالأسماء تحاول أن تعوّض (الرؤى) الأولى التي تسكن النفس، لكنها لا تفلح "بمحو" آثار الرؤى" وإن وقعت النفس في وهم "إخفاق الرؤى ونهايتها".

كما تبدو فصول الرواية الثلاثة أشبه بمحطات عمر الإنسان الثلاث، فالرواية التي جاءت في ثلاثة فصول؛ الفصل الأول (طاء الطريق)، والثاني (راء النذير)، والثالث (سين السؤال). انقسم كل فصل إلى خمسة أجزاء مرقمة (دون عناوين) وكأنّ هي ناظر بعضها بعضاً (إيقاعياً) مثل قصيدة من ثلاثة مقاطع، في كل مقطع خمسة أبيات.

هذه الانشطاريّة المستعينة بدلالات الحروف وممكناتها، تكشف عن طاقات كامنة قابلة للتحوّل تتجاوز المسار التّعاقبيّ الأفقيّ إلى المسارات التّزامنيّة العموديّة:

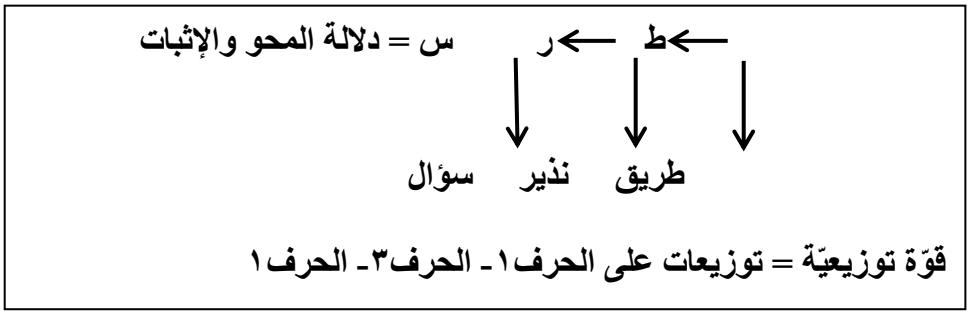

وهكذا فإنّ {ط ر س} تتحوّل إلى ممكنات غير محصورة تستمر معجم الطّاء والرّاء والسّين بقوّة أوّليّتها وقوّة قافيتها، ليستدخل السّارد القوّة الكامنة في المعاجم العربيّة واختلاف طرق ترتيبها للكلمات:

الطاء بقوّة أوّليّتها= طريق، طوق، طمأنينة، طباق، طرد، طغيان، طمس، طمر، طقس، طابو...

الرّاء بقوّة قافيتها= نذير، بشير، قدر، قبر، سفر، خبر، جمر...

السّين بقوّة أوّليّتها= سؤال، سعير، سفر، سعادة، سمو، سرقة، سلب، سهم...

هذا الانتقال من نظام مغلق إلى نظام مفتوح، يجعل القارئ مقابل ممكنات شبه لا نهائيّة لثلاثيّات توازي الطرس في طرسيّته؛ محواً وإثباتاً، فتتفتح فصول الحياة على قدَر لا نهائيّ، يملك السّارد – أيّ سارِدٍ– قدرة من مستويين: الإنشاء والتّوصيف؛ فينشئ من الأقدار ما يُريد في متنه السّرديّ، ثمّ يصف ما أنشأ بما يُريد، في المقابل تظلّ قدرة الإنسان في الفعل الحياتيّ محكومة بما تسمح به "الأقدار" أو تريده في مستوى الإنشاء، فلا يبقى له إلا مستوى التّوصيف، لذلك يقع الإنسان

ضحيّة "ألاعيب اللغة"؛ فيسمّي هزيمته انتصاراً مستعيناً بقوّة التّوصيف في مواجهة قوّة الإنشاء التي يكاد يفقدها.

وبالجملة يصير الفعل السّرديّ كلّه فعلاً إنشائيّاً وتوصيفيّاً على حاشية الأقدار، لا تستطيع مزاحمتها ولا تغييرها في سياق زمانيّتها، ولكنّها تستطيع احتلال القوّة الحدثية للأقدار بالقوّة السّرديّة للسّرد في الأزمنة التالية حين تصير جزءاً من الوعي السّرديّ المؤثِّر والمتداخل مع الوعي التّاريخيّ (ريكور، ٢٠٠٦)

أغلب أجزاء الفصل الأول (طاء الطريق) ضمّت أقاصيص رفاق الطريق الذين اجتمعوا في سيارة النقل –من غير معرفة مسبقة ما بينهم – للتّوجّه إلى مدينتهم الجنوبية التي تقول الأخبار إنّها تعرّضت لضربة جوية أمريكية، وقد تعمّد الراوي عدم تسميتها، أو الإشارة إلى موقعها، لتتحوّل إلى رمز لكل مدن العراق التي تعرّضت لهجمات العدوان الأطلسي، وهذه حيلة سرديّة معروفة مطروقة بكثرة لا تتطلّب قدرة نقديّة خاصة لاكتشاف دلالتها، ودارت أحداث هذا الفصل في أكثر من مكان: بناية الجريدة، الشارع، كراج النقل، داخل سيارة النقل، كما تحرّكت في الفصل أكثر من شخصية نوعية، وأكثر من راوٍ، إلا أنّ جميع الأمكنة والشخوص وروايتهم لا تحضر إلا بفعل السارد نفسه فهو بؤرة الفعل السردي كلّه.

إذا كان يظهر للقارئ أنّ الفصل الأول يبدو أكثر ديمقراطية سرديّة، فإنّ الفصل الثاني (راء النذير) يعود لاستبداد الراوي فيقتصر عليه وتداعياته وهو ما زال في السيارة فالرحلة لم تنته بعد، والركاب لا يزالون معه في ذات السيارة المتوجهة إلى (المدينة / الرمز) دون أن تبدر منهم سوى أحاديث مقتضبة تضعهم في صلب الرواية دون أن تُشركهم في صناعة أحداثها المركزية، فيلفت الراوي إليهم الانتباه أحياناً بمنحهم فرصة للكلام والتذكّر والتعليق متخذاً من ذلك مسوِّغاً لتداعياته، دون أن يمنحهم فرصة تعدّي أدوارهم الحياتية الخاصة للاندماج في خط سير الراوي باستثناء واحد منهم هو (رمزي) الذي يقفز من الحاشية ليدخل في نص الراوي ومتنه، ويتلاقى مع خط سيره عندما يكشف لنا النص آخر مفاجآته فإذا برمزي هو أحد أشقاء (رؤى).

إنّ الرواة الفرعيين الممَثَّلين برفاق السفر هم الذين منحوا الرواية خاصيّة تعدد الرؤى والأصوات، وحرّروها من هيمنة الراوي الفرد ظاهرياً، وأضفوا عليها إيقاعات جديدة تعبّر عنها تجاربهم المغايرة واتجاهات حيواتهم المتشعبة المتعدّدة، وبذلك فإنّ كلّ واحد من هؤلاء يشكّل نصّاً فرعياً في شجرة السرد الكلية، وهذه النصوص لا علاقة لأيّ منها بنصوص الآخرين من جهة ولا علاقة بها مجتمعة بنصّ الراوي إلا من حيث إنّها جميعاً تتلاقى مع خط السرد العام في نقاط معينة

وتذوب فيه.

في الفصل الثالث الأخير (سين السؤال) يخرج الراوي من صندوق تداعياته عائداً إلى رفاق رحلته ليسرد بعضهم حكاياته المحزنة، حكايات الغائبين، لينتهي السرد الخارجي بربط ما كان قد انقطع من سرد داخلي. وباستمرار لاستباديّة السارد يظلّ الفصل الثالث تحت "هيمنة الراوي" التي لا تمنح رفاق رحلته إلا فرصاً قليلة لملء فراغات الذاكرة، ليتكئ عليها للانفراد بتداعياته متواصلاً مع ما كان قد انقطع مع نهاية الفصل الذي سبقه، ليعود من جديد إلى تفكيك قصة الحب الأول مع (رؤى) وانقطاع الاتصال المباشر بينهما ليتحوّل الماضي إلى ملاذ يهرب إليه بحثاً عن السلوى، فها هو بعد فشل التجربة، وفشل الراوي ووالدته في تليين صلابة أبيه وإقناعه بخطبتها له يأوي إلى خرائب بيت جده ليستحضره من طيات الذكريات، لكنّ الماضي لا يعود، والذكريات أعجز من أن ترمّم ما انهدم، وأعجز من أن تُبرئ جراح الحاضر.

في هذا الفصل يُجاب عن كلّ الأسئلة المعلَّقة، وتُملأ كل فراغات السّرد، وتبدو إرادة الحرية وكأنّها تنتصر على إرادة القدر؛ فـ(رؤى) لم تمت بمحاولة الانتحار حرقاً، بل أُنقذت، وعاشت تتحدّى ظروفها القاهرة بعناد لتكمل دراستها بتفوّق وتُقبل في كلية الطب. والشاب المرح المفتول العضلات الذي رافقه طيلة الرحلة بسيارة النقل من بغداد إلى مدينته، الذي شكّ أنه سبق أن رآه لم يكن سوى أحد أشقاء (رؤى). والنّعش الذي رآه ملفوفاً بعلم، ومحمولاً على سيارة مغادرة للمدينة في ذات الوقت الذي كان هو في طريقه إليها هو نعش أبيه الذي راح ضحية ضربة جوية أمريكية. والأب المتصلّب ليّنه الزمن فندم بعد سنوات على التفريط بولده الوحيد وعدم تحقيق أمنيته بالاقتران بحبيبته، والقصّة التي كان قد كتبها عن سيرة جدّه، وأعطاه نسخة منها وهو لا يجيد القراءة، سيجدها مع المخلفات العزيزة التي تركها جدّه بعد وفاته، وستكون تلك النسخة نواة روايته الجديدة التي سيكتبها مضيفاً لها ما استجدّ.

تقلبات الوضع الاستبداديّ السّرديّ والحركة الدّيمقراطيّة السّرديّة:

رغم كلّ ما يُظهره المتن السّرديّ من تحوّلات قدريّة، وانتصارات للإرادة الإنسانيّة، إلا أنّها لا تخرج عن حيّز الطّاقة السّرديّة، سواء تلك الناجزة القديمة كمأساة "أوديب"، أم هذه الرّواية؛ فالأقدار المتحوّلة، والمتغيّرة بين كتابة ومحوٍ وكتابة ثانية وثالثة لا تشكّل إلا ممكنات سرديّة لا تتحقّق في التّاريخ والواقع إلا بشروط القدر التاريخيّ لا القدر السّرديّ، وأستدعي رؤية "فردريك جيمسن" للسّرد بأنّه ليس مجرّد شكل أو طراز أدبيّ، بل هو "مقولة معرفيّة" أساسيّة، إذ لا يقدّم الواقع نفسه للذّهن الإنسانيّ إلا على شكل قصص (سلدن، ١٩٩٦، ص٧٧).

وهذا السّرد يعمل كما تعمل الأيديولوجيّات، التي يرى "جيمسن" أنّها "استراتيجيّات احتواء" تسمح للمجتمع بأن يقدّم تفسيراً عن ذاته، يكبت التناقضات التّحتيّة للتّاريخ، لذلك على محلّل النّصوص الأدبيّة اكتشاف "ما لم يُقَلْ" من ممكنات، وهذا الّذي "لا يُقال" هو التّاريخ المكبوت (سلدن، ١٩٩٦).

ولكن يبقى سؤال مهمّ هنا: هل تشكّل استراتيجيّة الاحتواء السّردي الكابتة لتناقضات التّاريخ طريقة لإبقاء هذه التّناقضات وحفظها من لحظات التحوّل النوعيّ، أي "الثورة"؟

وفقاً لمنظور الباحث فإنّ السّرد الأدبيّ لا يعمل على تكثيف الطّاقة في فيزياء السّرد ليحوّلها إلى طاقة في تحوّلات فيزياء الواقع إلا على مستوى "النّجاة الشّخصيّة" أو "التّوازن الدّاخليّ"، أمّا على مستوى الواقع العموميّ والتّاريخ، فإنّ السّرد أقرب لتبديد الطّاقة أو تفريغها حين يحوّل كثافة الطّاقة السّرديّة إلى طاقة تأويليّة تُزيل تناقضات الواقع والتّاريخ في مقام التأويل لا مقام الفعل الواقعيّ.

هذا الاختلاف في أثر الطّاقة السّرديّة عن أثر الطّاقة الواقعيّة نلحظ آثار الوعي به في المتن السّرديّ لرواية "أطراس الكلام"، عبر محاولات الهروب من أطواق السّرد وتحوّلاته المحفوظة، كما سيأتي.

ومع كلّ هذه التّحوّلات وآثار الطاقة في مستوياتها المختلفة، فإنّ الرّواية لا تخرج عن الدّائرة الكبيرة لممكنات السّرد بما هو سرد، وهذه الدّائرة لا تخرج بدورها عن الدّائرة الكبرى التي تحيط الفعل الإنسانيّ كلّه، ألا وهي دائرة "القدر" وأسئلته الكبرى من الجبر والاختيار والاستبداد والدّيموقراطيّة وحرّية الإرادة الإنسانيّة، لذلك يمكن قراءة الرّواية محاولة لاجتراح إجابات لا أرى أنّها تخرج عن اجتراحات الخبرة القديمة في التجربة الإنسانيّة، مع ميل إلى "الجبريّة" سواء بالتّصريح ابتداءً أم اللزوم انتهاءً؛ فأغلب محاولات الخروج من ثنائيّة الجبر والاختيار تؤول إلى صور من صور الجبر، حتى يصبح السّرد أقرب لمقالة الفخر الرّازي: "الإنسان مجبور في صورة مختار" (الرّازي، ص١٩٩) فالسّارد والقارئ محكومان معاً لممكنات السّرد لا غير، حتى وإن توهّم السّارد أنّه يخرق أنظمة الإكراه السّرديّ بخروجه عن الممكنات الأولى، فإنّه لا يخرج إلا إلى ممكنات أخرى منحها إيّاها نظام السّرد نفسه، فهو يخرج من شكل إلى شكل، أو من حالة إلى أخرى لا أكثر.

الهروب من أطواق السّرد: الاتّزان خارج السّرد وداخل النّصّ:

لم يشأ الركابيّ مغادرة متنه السّرديّ دون بوابة خروج، بوابة قد يتوهّم القارئ المستعجل أنّها خارجيّة بعد المبنى السّرديّ وليست منه ولا ضروريّة، فهي عتبة إشاريّة مصدريّة يمكن أن نجدها

في أيّ عمل أدبيّ من باب الأمانة العلميّة، فيشير الروائيّ إلى مصادره أو بعضها التي استمدّ منها المعلومات، فيقول الرّكابيّ:

> *إشارة*
> *المعلومات الطّبيّة مستقاة من كتاب (التنكيل بالعراق) تأليف (جيف سيمونز)- إصدار مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – لبنان – الطبعة الثانية – ١٩٩٨.*

ولكنّ هذه الإشارة تتحوّل إلى تكثيف عالٍ في طاقة الوضع الكامنة تنتظر الانفجار الكبير الأقرب للانفجار الذّريّ؛ لأنّنا أمام حالة من تحوّل المادّة إلى طاقة بقوّة الانشطاريّة السّرديّة، وذلك بما تُثيره من أسئلة:

١- هل يحتاج "االرّكابيّ" وهو "الروائيّ العراقيّ" شاهداً أو مصدراً يكون مصدراً لشهادته؟ أليس هو الشّاهد العيانيّ بعراقيّته على واقع العراق؟

٢- هل يحتاج "الرّكابيّ" شاهداً غربيّاً بريطانيّاً ليكون مصدره في معاينة الواقع المعاش؟

٣- عنوان الكتاب "التنكيل بالعراق"، وما يحمله من دلالات قاسية.

٤- اختيار الخطّ المائل.

لم يكن اللجوء لطرف خارجيّ، يبدو آخر لغاية هذه اللحظة إذا عددنا الرّكابي الطّرف الأوّل، لأجل تأكيد المؤكّد، أو الاستعانة بالشهادة الغربيّة، أو من باب "شهادة الآخر"، فحسب، بل كانت مفارقة سوداء تلقي بظلالها على المتن السّرديّ السّابق لتلك الإشارة، إنّها مفارقة غربة الضّحيّة المركّبة؛ فهو الشّاهد الفعليّ الحقيقيّ على مأساة العراق أو التنكيل به، كيف لا وهو – أي المواطن العراقيّ – ضحيّة هذا التنكيل؟ ومع ذلك فإنّ مأساته لا تكون حدثاً خارج الواقع وداخل عالم الاتّصال العالميّ إلا بشهادة عين خارجيّة، وغربيّة على وجه الخصوص، وفي المسافة بين الحدث والخبر تُقيم مأساة العراق بشهوديّة ضحاياها وحدهم!

ما فعله الرّكابيّ جعل كلّ مادة كتاب "تنكيل العراق" جزءاً من سرديّته، وجزءاً من الطّاقة الكامنة لخطاب السّرد، فتغدو كلّ الكوارث والمخالفات للقوانين الدوليّة والإنسانيّة عناصر سرديّة تُمِدّ المتن السّرديّ وخطابه بطاقة مذهلة، ولكنّها طاقة انفجاريّة انشطاريّة تشطّر المتن السّرديّ وتفتّته

تحت وطأة المأساة والتنكيل اللذين هما أثقل بكثير من قدرة المتن السّرديّ على حمله.

هل هذا الفعل اعتذار عن التباس سرد المأساة بجماليّات الأدبيّة؟ أليس الأدب والفنّ خيانةً حين يكونان تمثيلاتٍ جميلة لواقعٍ قبيح، بل مؤلمٍ جداً؟

وبهذه الخاتمة تكتسب عتبة العنوان "أطراس الكلام" طاقات جديدة، تُحيل المتن السرديّ كلّه إلى لحظة تعليق في طاقة الوضع التحوّليّة والانفجاريّة؛ فإذا كان التطريس كتابة إثر محوٍ بعد كتابة، فإنّ المتن المكتوب يصبح قابلاً للمحو مرّة أخرى، فالكتابة ليست فعلاً نهائيّاً بل سيرورة وصيرورة، فسيرورتها بحركتها، وصيرورتها بتحوّلاتها، وهكذا يصبح المتن السّرديّ بكلّ طاقة وضعه وحركته القاسية المؤلمة مفتوحاً على محو ممكن، وكتابة جديدة ممكنة، وهذا مشروط ببقاء الطّرس نفسه، أي الصحيفة الحاملة لتحوّلات فيزياء واقعه وسرديّاتها، وهنا ننفتح على آفاقٍ تأويليّة، يحمل بعضها طاقة أمل وفرح، ويحمل بعضها طاقة يأس وحزن، أمّا الأمل فهو ببقاء الطّرس العراقيّ نفسه، فيبقى العراق عراقاً حتى في تقلّبات نكباته وصحواته، ولكن الخطر يكمن في حدوث تحوّلات في المتن الماديّ لسرديّات العراق، أي الوطن العراقيّ، فيُصاب بالاهتراء والتمزّق والتلاشي.

أمّا الخط المائل فيحمل طاقة سيميائيّة تنذر بخطر السّقوط، وتحذّر من ترك الواقع المائل والمنحرف يزداد ميلاً وانحرافاً قد يؤول إلى سقوط مدوٍّ، وهذا الّذي تخوّفه المتن السّرديّ وما وراءه هو ما وقع للأسف بعد أعوام من صدور الرّواية!

وهذه الخاتمة بعد نصّ الرواية تتقاطع مع عتبة نصيّة بدأ بها الرّكابيّ روايته، حين اقتبس كلام "ألبير كامو": "إنّني أؤمن بالعدالة، ولكن عليّ أن أدافع عن أمّي قبل العدالة"، (الرّكابيّ، ٢٠٠١، ص٧)، فتصبح الرّواية كلّها مساراً من تحوّلات خطاب السّرد لتحفظ لهذه العتبة طاقتها الخطابيّة المفارقة، فالعدالة قيمة مطلقة من جهة، ولكنّ الأمّ و"الوطن" قيم مجسّدة في ابنهما تجسّداً يفرض تحوّلاتٍ على طاقة العدل الخطابيّة لتفرّغ لحساب حبّ الأمّ والوطن، فتصبح هذه العتبة مع متن الرّواية مرافعة الرّكابيّ عن نفسه، يرافع عن حبّه للعدالة ولكن ليس على حساب وطنه، وهي مرافعة لا يمكن أن تصمد إلا بقدر كبير من الشّعريّة والأدبيّة، وهنا تأتي قيمة السّرد وقدرة السّارد على إنجاز مرافعته إنجازاً يجمع المقبوليّة والتّسويغيّة معاً.

أطواق الحصار:

كانت رواية "أطراس الكلام" استجابة روائية لطلب الرئيس العراقي السابق "صدام حسين" حسب ما أورد الركابي نفسه في لقاء مع جريدة السفير:

"أذكّر من لم يقرأ روايتي (أطراس الكلام) في طبعتها الأولى الصادرة سنة ٢٠٠١ أنني كتبتها بما يشبه القسر أسوة بزملائي الروائيين الآخرين الذين اجتمع بهم رئيس الجمهورية شخصياً ليطلب منهم . والكل يدرك مغزى طلب على هذه الشاكلة يصدر عن أعلى سلطة في البلاد، وفي تلك الظروف الدقيقة التي كانت الولايات المتحدة تهيئ الرأي العام العالمي لتسويغ غزوها المقبل للعراق أن يكتب كل واحد منهم رواية عمّا يجري؛ فكتبت روايتي تلك كمن هو مقدم على الانتحار. وكان د. شجاع العاني – والرجل حيّ يرزق يستطيع أن يكذّبني في ما أقول – أول من تنبه إلى خطورة فكرة الرواية فهنّأني على سلامتي حين التقينا في (مربد) تلك السنة، وقال بالحرف الواحد: (يخيّل إليّ أنك نجوت من موت محقق بسبب أطراس الكلام"[٣].

والسؤال هو: هل نجا الركابي سرديّاً من "أطواق الحصار"؟

في قراءة تتجاوز الانغلاقيّة النّصّيّة، وتعيد لجميع العناصر السّياقيّة دورها في تشكيل فيزياء السّرد وتحوّلاته، يكون البحث عن أثر الفواعل غير النّصيّة مطلوباً.

ولكن ما أهميّة هذا التّصريح؟ وما آثاره من منظور فيزياء السّرد وتحوّلاته؟

١. يماهي بين تجربة الرّاوي في فيزياء الواقع وتجربة السّرد في فيزياء السّرد؛ فالرّاوي يُريد النّجاة الواقعيّة بالنّجاة بالسّرد، وهذا يُعيدنا إلى اللحظة "الشهرزاديّة" التي جعلت حياتها ونجاتها فعلاً سرديّاً.
٢. يكشف عن الدّواعي المركّبة والمعقّدة الكامنة في مضمر المتن السّرديّ؛ فالرّاوي يريد نجاة العراق ليس من الحصار والغزو الأمريكيّ المتوقّع وحسب، بل من السّلطة الإكراهيّة المتمثّلة في "صدام حسين"، فكيف ينجو من هذا كلّه معاً، دون أن يكون مضطراً للمفاضلة بين النّجاتين فيقع ضحيّة ثنائيّة "الطّغاة والغزاة".
٣. تكشف عن الممكنات المضمرة للتزامنيّة السّرديّة بين الماضي والحاضر، فحضورهما معاً، وتأثيراتهما المتبادلة في المتن السّرديّ تمنح مشروعيّة قراءة موقف الرّكابيّ من ثنائيّات الدّاخل العراقيّ والخارج العراقيّ، والطّغاة والغزاة، فلا يُنظر إلى طرفٍ دون طرف في هذه الثّنائيّات.

الهوامش:

(١) عبد الخالق الرّكابيّ: روائيّ عراقيّ، ولد عام ١٩٤٦، وله من الرّوايات: نافذة بسعة الحلم، ومكابدات عبد الله العاشق، وسابع أيّام الخلق. انظر: https://www.alnaked-aliraqi.net/ency/abdul_khalec_alracabe (موقع في الشّبكة العنكبوتيّة).

(٢) الترمذيّ، أبو عيسى، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك الترمذيّ، **الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ﷺ**، (تحقيق بشار عواد معروف)، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، ١٩٩٨، دار الغرب الإسلامي، بيروت، رقم ٢٥١٦، ج٤، ص٢٤٨.

(٣) السفير، ع ١٢٢٤٩، ٣ آب ٢٠١٢، بيروت.

المراجع:

المراجع باللغة العربيّة.

- القرآن الكريم.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم (ت٧١١هـ)، **لسان العرب**، ط٣، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤م.
- الترمذيّ، أبو عيسى، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك الترمذيّ (ت ٢٧٩هـ)، **الجامع المختصر من السنن عن رسول الله ﷺ**، (تحقيق بشار عواد معروف)، ١٩٩٨، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- الرازي، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن التيمي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ)، **محصّل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين**، مكتبة الكليات الأزهريّة، د.ت. ١٩٨-١٩٩.
- الزّكابيّ، عبد الخالق، **أطراس الكلام**، الطبعة الأولى، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠١م.
- إيجلتون، تيري، **أوهام ما بعد الحداثة**، ترجمة منى سلام، أكاديميّة الفنون، وحدة الإصدارات، القاهرة، ٢٠٠٠، ١٧.
- باتريك شارودو، دومنيك منغنو، **معجم تحليل الخطاب**، ترجمة عبد القادر المهيري، حمّادي صمّود، دار سيناترا، تونس، ٢٠٠٨، ١٧٠-١٨٩.
- ريكور، بول، **الزمان والسّرد**، ترجمة سعيد الغانمي، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٦، ج٣.
- سلدن، رامان، **النظرية الأدبية المعاصرة**، ترجمة سعيد الغانمي، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٦، ٧٦-٧٩.

- كانط، إمانويل، **نقد ملكة الحكم**، ترجمة سعيد الغانمي، الطبعة الأولى، كلمة – منشورات الجمل، بيروت، ٢٠٠٩، ١٣٠-١٧٠.

المراجع الإنجليزيّة:

- Bunge, Mario, Matter and Mind: *A Philosophical Inquiry*, Boston Studies in the Philosophy and History of Science, Springer, Boston, 2010, 14-27,58-88, 190-230.
- Schneider, Klaus P. & Barron, Anne, *Pragmatics of Discourse*, Handbooks of Pragmatics [HOPS] 3. DE GRUYTER MOUTON, 2014, 189-214.